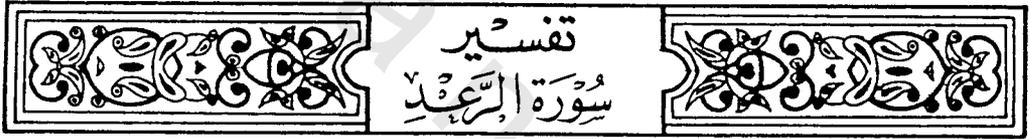


الفرج من الله في أحوج الأوقات إليه، ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾ أي من إيمان قومهم أن يؤمنوا بهم ﴿وَوَطَّنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا﴾ أي وظن قومهم حين أبطأ الأمر أنهم قد كذبوا.

﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصَدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

يقول تعالى: لقد كان في خبر المرسلين مع قومهم، وكيف نجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين ﴿عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وهي العقول ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ أي وما كان لهذا القرآن أن يفترى من دون الله، أي يكذب ويخترق ﴿وَلَٰكِن تَصَدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي من الكتب المنزلة من السماء، وهو يصدق ما فيها من الصحيح، وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير. ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من تحليل وتحريم، ومحبوب ومكروه، وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمنجيات والنهي عن الحرمات وما شاكلها من المكروهات، والإخبار عن الأمور الجليلة، وعن الغيوب المستقبلية، والإخبار عن الرب بالأسماء والصفات، وتنزهه عن مماثلة المخلوقات، فلهذا كان ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ تهدي به قلوبهم من الغي إلى الرشاد، ومن الضلال إلى السداد.



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿السرّ يلك آيات الكتب والذى أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾. أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تقدم في أول سورة البقرة، وكل سورة ابتدأت بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن، وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا ريب. ولهذا قال: ﴿تلك آيات الكتب﴾ أي هذه آيات القرآن ﴿والذى أنزل إليك﴾ يا محمد ﴿من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ كقوله: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾ [يوسف: 103] أي مع هذا البيان والجلاء والوضوح لا يؤمن من أكثرهم لما فيهم من الشقاق والعناد والنفاق.

﴿الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم أسوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسعى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلىء ربكم توفنون﴾.

يخبر تعالى عن كمال قدرته، وعظيم سلطانه أنه الذي ياذنه وأمره رفع السموات بغير عمد، بل ياذنه وأمره وتسخيره رفعها عن الأرض بعداً لا تنال، ولا يدرك مداها ﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه﴾ [الحج: 65] وقوله: ﴿ترونها﴾ أي هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها ﴿ثم أسوى على العرش﴾

من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل، تعالى الله علواً كبيراً: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قيل: المراد أنهما يجريان إلى انقطاعهما بقيام الساعة، كقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ [يس: 38] وقوله: ﴿يُقَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بَلِقَاءَ رَبِّكُمْ تُوَفُّونَ﴾ أي يوضح الآيات والدلالات الدالة على أنه لا إله إلا هو، وأنه يعيد الخلق إذا شاء كما بدأه.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغِشِي أَيْلَ النَّهَارِ إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢١).

لما ذكر تعالى العالم العلوي شرع في ذكر قدرته وحكمته وأحكامه للعالم السفلي فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ أي جعلها متسعة وأرساها بجبال راسيات شامخات، وأجرى فيها الأنهار والجداول والعيون ليسقى ما جعل فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح ﴿جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي من كل شكل صنفان ﴿يُغِشِي أَيْلَ النَّهَارِ﴾ أي جعل كلا منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، فإذا ذهب هذا غشيه هذا، وإذا انقضى هذا جاء الآخر، فيتصرف أيضاً في الزمان كما يتصرف في المكان والسكان ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي في آلاء الله وحكمه ودلائله.

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَعَايِرٌ صِنَوَانٌ يُسْقَى بِمَاءٍ وَجِدٍ وَنُقْضَلٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٢٢).

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّرَاتٌ﴾ أي أرض يجاور بعضها بعضاً، مع أن هذه طيبة تنبت ما ينفع الناس، وهذه سبخة مالحة لا تنبت شيئاً. ويدخل في هذه الآية اختلاف ألوان بقاع الأرض، فهذه تربة حمراء، وهذه بيضاء، وهذه صفراء، وهذه سوداء، وهذه محجرة، وهذه سهلة، وهذه مرملة، وهذه سميكة، وهذه رقيقة، والكل متجاورات، فهذه بصفتها وهذه بصفتها الأخرى. فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار. لا إله إلا هو ولا رب سواه. ﴿صِنَوَانٌ وَعَايِرٌ صِنَوَانٌ﴾ الصنوان هو الأصول المجتمعة في منبت واحد كالرمان والتين وبعض النخيل وغير ذلك، وغير صنوان ما كان على أصل واحد كسائر الأشجار ومنه سمي عم الرجل صنو أبيه، كما جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لعمر: «أما شعرت أن عم الرجل صنو أبيه». ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَجِدٍ وَنُقْضَلٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ﴾ هذا الاختلاف في أجناس الثمرات والزرورع في أشكالها وألوانها وطعومها وروائحها وأوراقها وأزهارها، فهذا في غاية الحلاوة، وهذا في غاية الحموضة، وذا في غاية المرارة، وذا عفص، وهذا عذب، وهذا جمع هذا وهذا، ثم يستحيل إلى طعم آخر بإذن الله تعالى. وهذا أصفر وهذا أحمر وهذا أبيض وهذا أسود وهذا أزرق، وكذلك الزهورات، مع أنها كلها تستمد من طبيعة واحدة، وهو الماء مع هذا الاختلاف الكثير الذي لا ينحصر ولا ينضب. ففي ذلك آيات لمن كان واعياً، وهذا من أعظم الدلالات على الفاعل المختار الذي بقدرته فاوت بين الأشياء وخلقها على ما يريد، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَإِن تَعَجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ إِذْ دَاكُتْرُبًا أَيْنَا لَفِي خَلْقِ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا  
بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَعْلَىٰ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَإِن تَعَجَبَ﴾ من تكذيب هؤلاء المشركين بالمعاد مع ما يشاهدونه من آيات الله سبحانه، ودلائله في خلقه على أنه القادر على ما يشاء ومع ما يعترفون به من أنه ابتداء خلق الأشياء فكونها بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً ثم هم بعد هذا يكذبون خبره في أنه سيعيد العالم خلقاً جديداً، وقد اعترفوا وشاهدوا ما هو أعجب مما كذبوا به، فالعجب من قولهم: ﴿أَيْنَا دَاكُتْرُبًا أَيْنَا لَفِي خَلْقِ جَدِيدٍ﴾ وقد علم كل عالم وعامل أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس. وأن من بدأ الخلق فالإعادة عليه أسهل. ثم نعت المكذبين بهذا فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَعْلَىٰ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ أي يسحبون بها في النار ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي ما كثون فيها أبداً، لا يحولون عنها ولا يزولون.

﴿وَسَتَجِدُنَاكَ يَوْمَ يُبْعَثُونَ قَتَلَ الْحَسَنَةَ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قِبَلِهِمُ الْمَثَلُتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ  
لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾

﴿وَسَتَجِدُنَاكَ﴾ أي هؤلاء المكذبون ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ قَتَلَ الْحَسَنَةَ﴾ أي بالعقوبة ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قِبَلِهِمُ الْمَثَلُتُ﴾ أي قد أوقعنا نعمتنا بالأثم الخالية وجعلناهم عبرة لمن اتعظ بهم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ أي إنه تعالى ذو عفو وصفح وستر للناس مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار. ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب ليعتدل الرجاء والخوف ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ روى ابن عساکر عن أبي حسان الرماوي أنه رأى رب العزة في النوم ورسول الله واقف بين يديه يشفع في رجل من أمته، فقال له: ألم يكفك أني أنزلت عليك في سورة الرعد ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ قال: ثم انتبهت.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنْ مَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾

يقول تعالى إخباراً عن المشركين أنهم يقولون كفراً وعناداً: لولا يأتينا بآية من ربه كما أرسل الأولون، كما تعتوا عليه أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن يزيح عنهم الجبال، ويجعل مكانها مروجاً وأنهاراً ﴿وَمَا مَعْنَىٰ أَنْ تُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ﴾ [الإسراء: 59] قال تعالى: ﴿إِنْ مَا أَنْتَ مُنذِرٌ﴾ أي إنما عليك أن تبلغ رسالة الله التي أمرك بها، و﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: 272] وقوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي ولكل قوم داع ونبي.

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ

بِمِقْدَرٍ ﴿٨﴾﴾

يخبر تعالى عن تمام علمه الذي لا يخفى عليه شيء، وأنه محيط بما تحمله الحوامل من كل إناث

الحيوانات كما قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْآرْحَامِ﴾ [الرعد: 34] أي ما حملت من ذكر وأنثى، أو حسن أو قبيح، أو شقي أو سعيد، أو طويل العمر أو قصيره كقوله تعالى: ﴿هُوَ أَتَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنْ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [النجم: 32]. وفي الصحيحين: «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقه مثل ذلك ثم يكون مضغاً مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكاً، فيؤمر بأربع كلمات، يكتب رزقه وعمره وعمله، وشقي أو سعيد». وفي الحديث الآخر: «يقول الملك: أي رب، أذكر أم أنثى؟ أي رب، أشقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيقول الله، ويكتب الملك». ﴿وَمَا تَعْبُؤُا الْأَرْحَامَ﴾ يعني السقط ﴿وَمَا تَزِدَادُ﴾ يقول: ما زادت الرحم في الحمل، ومنهن من تنقص فذلك الغيض والزيادة التي ذكر الله تعالى، وكل ذلك بعلمه تعالى ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ أي بأجل، حفظ أرزاق خلقه وآجالهم، وجعل لذلك أجلاً معلوماً. وفي الحديث الصحيح أن إحدى بنات النبي ﷺ بعثت إليه أن ابناً لها في الموت وأنها تحب أن يحضره فبعث إليها يقول: «إن الله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فمروها فلتصبر ولتحتسب».

### ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ (١١)

﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي يعلم كل شيء مما يشاهد العباد، ومما يغيب عنهم، ولا يخفى عليه منه شيء. ﴿الْكَبِيرُ﴾ الذي هو أكبر من كل شيء ﴿الْمُتَعَالِ﴾ أي على كل شيء ﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: 12] وقهر كل شيء فخضعت له الرقاب، ودان له العباد طوعاً وكرهاً.

### ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ (١٢)

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بجميع خلقه، وأنه سواء منهم من أسر قوله أو جهر به فإنه يسمعه لا يخفى عليه شيء كقوله: ﴿وَإِنْ جَهَرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ الْخَفِيَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: 7] وقالت عائشة: سبحان الذي وسع سمعه الأصوات، والله لقد جاءت المجادلة تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، وأنا في جنب البيت، وإنه ليخفي عليّ بعض كلامها فأنزل الله ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: 1] وقوله: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ أي ظاهر ما يش في بياض النهار وضيائه، فإن كليهما في علم الله على السواء كقوله: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَفْشُونَ يَا بَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُبْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [هود: 5].

### ﴿لَمْ مَعْجَبَتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا

مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ (١٣)

﴿لَمْ مَعْجَبَتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ...﴾ أي للعبد ملائكة يتعاقبون عليه: حرس بالليل وحرس بالنهار يحفظونه من الأسوء والحوادث كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر: ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ﴿يَحْفَظُونَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ بأمر الله. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا

مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴿١١﴾ روى ابن أبي حاتم قال: أوحى الله إلى نبي من الأنبياء من بني إسرائيل أن قل لقومك: إنه ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحولون منها إلى معصية الله إلا حَوْلَ الله عنهم ما يحبون إلى ما يكرهون، وتصديق ذلك هذه الآية.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ السَّحَابَ الْقِثَالَ ﴿١٢﴾﴾ .

يخبر تعالى أنه هو الذي يسخر البرق، وهو ما يرى من النور اللامع ساطعاً من خلل السحاب ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ خوفاً للمسافر يخاف أذاه ومشقته، وطمعاً للمقيم يرجو بركته ومنفعته ويطمع في رزق الله ﴿وَيُنزِلُ السَّحَابَ الْقِثَالَ﴾ أي ويخلقها منسأة جديدة، وهي لكثرة مائها ثقيلة قريبة إلى الأرض.

﴿وَيَسِّحُ الرِّعْدَ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةَ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾ .

﴿وَيَسِّحُ الرِّعْدَ بِحَمْدِهِ﴾ كقولہ: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: 44] ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ أي يرسلها نعمة ينتقم بها ممن يشاء، ولهذا تكثر في آخر الزمان. ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ أي يشكون في عظمته، وأنه لا إله إلا هو ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ شديدة مباحثته في عقوبته من طغى عليه وعتا، وتمادى في كفره.

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْمَعْنَى وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفْتِهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَلِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾﴾ .

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْمَعْنَى﴾ التوحيد، أو لا إله إلا الله ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي ومثل الذين يعبدون آلهة غير الله ﴿كَبْسِطٍ كَفْتِهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ كمثل الذي يتناول الماء من طرف البئر بيده، وهو لا يناله أبداً بيده، فكيف يبلغ فاه؟ قال مجاهد: ﴿كَبْسِطٍ كَفْتِهِ﴾ يدعو الماء بلسانه ويشير إليه فلا يأتيه أبداً ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ .

﴿وَاللَّهُ يَسْتَعِذُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلْمًا لَهُمْ بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ ﴿١٥﴾﴾ .

يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه الذي قهر كل شيء، ودان له كل شيء، ولهذا يسجد له كل شيء طوعاً من المؤمنين، وكرهاً من الكافرين ﴿وَظُلْمًا لَهُمْ بِالْعُدُوِّ﴾ أي البكر ﴿وَالْأَصَالِ﴾ وهو جمع أصيل، وهو آخر النهار.

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهْرُ ﴿١٦﴾﴾ .

يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو، لأنهم معترفون بأنه هو الذي خلق السموات والأرض، وهو ربهما

ومدبرهما، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم، وأولئك الآلهة لا تملك لا لنفسها ولا لعابديها بطريق الأولى نفعاً ولا ضرراً أي لا تحصل لهم منفعة ولا تدفع عنهم مضرة، فهل يستوي من عبد هذه الآلهة مع الله، ومن عبد الله وحده لا شريك له فهو على نور من ربه؟ ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ يَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أجعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الرب وتمثله في الخلق فخلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم فلا يدرون أنها مخلوقة من مخلوق غيره؟ أي ليس الأمر كذلك، فإنه لا يشابهه شيء ولا يماثله، ولا ند ولا عدل له، ولا وزير له ولا ولد ولا صاحبة ﴿وَتَعْلَىٰ عَمَّا يُقُولُونَ عَلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: 43] وإنما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة معترفون أنها مخلوقة له عبيد له كما كانوا يقولون في تليبتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك» وكما أخبر الله عنهم في قوله: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: 3] فأنكر الله عليهم ذلك حيث اعتقدوا ذلك، وهو تعالى لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه.

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَرَدٍ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ .

اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق في ثباته وبقائه، والباطل في اضمحلاله وفنائه، فقال تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي مطراً ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ أي أخذ كل وادٍ بحسبه، فهذا كبير وسع كثيراً من المال، وهذا صغير وسع بقدره، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها، فمنها ما يسع علماً كثيراً، ومنها ما لا يتسع لكثير من العلوم، بل يضيق عنها ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ أي فجاء على وجه الماء الذي سال في هذه الأودية زيد عالٍ عليه، هذا مثل. وقوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَرَدٍ﴾ هذا هو المثل الثاني، وهو ما يسبك في النار من ذهب وفضة ابتغاء حلية، أي ليجعل حلية، أو نحاساً، أو حديداً، فيجعل متاعاً، فإنه يعلوه زيد منه كما يعلو ذلك زيد منه ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ أي إذا اجتمعا لا ثبات للباطل، ولا دوام له، كما أن الزيد لا يثبت مع الماء، ولا مع الذهب والفضة ونحوهما مما يسبك في النار، بل يذهب ويضمحل، ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ أي لا ينتفع به، بل يتفرق ويتمزق، ويذهب في جانبي الوادي، ويعلق بالشجر، وتسفه الرياح، وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب ولا يرجع منه شيء، ولا يبقى إلا الماء، وذلك الذهب ونحوه ينتفع به، ولهذا قال: ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: 43] قال بعض السلف: كنت إذا قرأت مثلاً في القرآن فلم أفهم بكيت على نفسي، لأن الله قال: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: 43]. وفي الصحيحين: «إن مثل ما

بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا ورعوا وسقوا وزرعوا، وأصابت طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني ونفع به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به» فهذا مثل مائي. وفي الصحيحين: «مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي يقعن في النار يقعن فيها، وجعل يحجزهن ويغلبهن فيقتحمن فيها - قال - فذلكم مثلي ومثلكم، أنا أخذ بحجزكم عن النار، هلم عن النار، فتغلبوني فتقتحمون فيها» فهذا مثل ناري.

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْإِهَادُ ﴿٧٦﴾﴾ .

يخبر تعالى عن مآل السعداء والأشقياء فقال: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي أطاعوا الله ورسوله، وانقادوا لأوامره، وصدقوا أخباره الماضية والآتية فلهم ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ وهو الجزاء الحسن، كقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْمُسْتَىٰ وَرِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26] وقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ أي لم يطيعوا الله ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي في الدار الآخرة لو أن يمكنهم أن يقتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهباً ومثله معه لافتدوا به، ولكن لا يتقبل منهم، لأنه تعالى لا يقبل منهم يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ أي في الدار الآخرة، أي يناقشون على النقيض والقطمير، والجليل والحقير «ومن نوقش الحساب عذب» ولهذا قال: ﴿وَمَا لَهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْإِهَادُ﴾ .

﴿۞ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَذَّكَّرُ أُولَٰئِكَ الْأَلْبَابِ ﴿٧٧﴾﴾ .

يقول تعالى: لا يستوي من يعلم من الناس أن الذي ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ هو الحق الذي لا شك فيه ولا مرية، ولا لبس ولا اختلاف فيه، بل هو كله حق ويصدق بعضه بعضاً، لا يضاد شيء منه شيئاً آخر، فأخبره كلها حق، وأوامره ونواهيها عدل، كما قال تعالى: ﴿وَوَدَّعْتُمْ كَيْفَ يَذَّكَّرُ أُولَٰئِكَ﴾ [الأنعام: 115] أي صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الطلب، فلا يستوي من تحقق صدق ما جئت به يا محمد، ومن هو أعمى لا يهتدي إلى خير، ولا يفهمه، ولو فهمه ما انقاد له ولا صدقه ولا اتبعه، كقوله: ﴿لَا يَسْتَوِي أَحَبُّ النَّارِ وَأَحَبُّ الْجَنَّةِ أَحَبُّ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَآرِضُونَ﴾ [الحشر: 20] أي أفهدا كهذا؟ لا استواء. وقوله: ﴿إِنَّمَا يَذَّكَّرُ أُولَٰئِكَ الْأَلْبَابِ﴾ أي إنما يتعظ ويعتبر ويعقل أولوا العقول السليمة الصحيحة. جعلنا الله منهم.

﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٧٨﴾﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن من اتصف بهذه الصفات الحميدة بأن لهم عقبى الدار، وهي العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة ﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ﴾ ﴿٢١﴾ وليسوا كالمنافقين الذين إذا عاهد أحدهم غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا حدث كذب، وإذا اتتمن خان.

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ ﴿٢٢﴾  
 ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ من صلة الأرحام، والإحسان إليهم وإلى الفقراء والمحاويج وبذل المعروف ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أي فيما يأتون، وما يذرون من الأعمال، يراقبون الله في ذلك، ويخافون سوء الحساب في الدار الآخرة، فلهذا أمرهم على السداد والاستقامة في جميع حركاتهم وسكناتهم، وجميع أحوالهم القاصرة والمتعدية.

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ ﴿٢٣﴾ .

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ أي عن المحارم والمآثم، ففطموا أنفسهم عنها لله عز وجل ابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ بحدودها ومواقيتها، وركوعها وسجودها وخشوعها على الوجه الشرعي المرضي ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أي على الذين يجب عليهم الإنفاق لهم من زوجات وقرابات، وأجانب من فقراء ومحاويج ومساكين ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي في السر والجهر، لم يمنعه من ذلك حال من الأحوال آناء الليل وأطراف النهار ﴿وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي يدفعون القبيح بالحسن، فإذا آذاهم أحد قابلوا بالجميل صبراً، واحتمالاً وصفحاً وشفوا بكفوله تعالى: ﴿أَدْفَعْ بِالْأُتَى هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: 34].

﴿جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ ﴿٢٤﴾ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ ﴿٢٤﴾ .

ولهذا قال مخبراً عن هؤلاء السعداء المتصفين بهؤلاء الصفات الحسنة بأن لهم عقبى الدار، ثم فسر ذلك بقوله ﴿جَنَّاتٌ عَدْنٍ﴾ والعدن الإقامة أي جنات إقامة يخلدون فيها ﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ أي يجمع بينهم وبين أحبائهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين، لتقر أعينهم بهم، حتى إنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى امتناناً من الله وإحساناً من غير تقيص للأعلى عن درجته كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور: 21]. وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ ﴿٢٤﴾ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ ﴿٢٤﴾ أي وتدخل عليهم الملائكة من ههنا ومن ههنا للتهنئة بدخول الجنة، فعند دخولهم إياها تفد عليهم الملائكة مسلمين مهئين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام والإقامة في دار السلام في جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام. روى الإمام أحمد عن



اقترحوا أو لم يجيبهم إلى سؤالهم، فإن الهداية والإضلال ليس منوطاً بذلك ولا عدمه كما قال: ﴿وَمَا تَعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: 101].

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (٢٨).

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي تطيب وتركن إلى جانب الله، وتسكن عند ذكره، وترضى به مولى ونصيراً، ولهذا قال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ أي هو حقيق بذلك.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا أَجْرُهُمْ﴾ (٢٩).

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا أَجْرُهُمْ﴾ أي فرح وقرّة عين، وغبطة لهم، وخير لهم أو «طوبى شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها» كما جاء في الحديث. وروى البخاري ومسلم «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها».

﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَلْتَلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ (٣٠).

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد في هذه الأمة ﴿لِّتَلْتَلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي تبلغهم رسالة الله إليهم كذلك أرسلنا في الأمم الماضية الكافرة بالله، وقد كذب الرسل من قبلك، فلك بهم أسوة، وكما أوقعنا بأسنا ونقمتنا بأولئك فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم. فإن تكذيبهم لك أشد من تكذيب غيرك من المرسلين ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ أي هذه الأمة التي بعثناك فيها يكفرون بالرحمن، لا يقرون به، لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله بالرحمن الرحيم، ولهذا أنفوا يوم الحديبية أن يكتبوا «بسم الله الرحمن الرحيم» وقالوا: ما ندري ما الرحمن الرحيم. قاله قتادة، والحديث في صحيح البخاري ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي في جميع أموري ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ أي إليه أرجع وأنيب، فإنه لا يستحق ذلك أحد سواه.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ بِهِ الْمَوْتُ بَل لَّيْلَهُ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِسَّ بِالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (٣١).

يقول تعالى مادحاً للقرآن الذي أنزله على محمد ﷺ، ومفضلاً له على سائر الكتب المنزلة قبله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ أي لو كان في الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها، أو تقطع به الأرض وتشق، أو تكلم به الموتى في قبورها لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنس والجن عن

آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله، ولا بسورة من مثله، ومع هذا فهؤلاء المشركون كفرون به جاحدون له ﴿بَلْ يَلَهُ الْآمُرُ جَمِيعًا﴾ أي مرجع الأمور كلها إلى الله عز وجل، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ومن يضل الله فلا هادي له، ومن يهد الله فما له من مضل. وقد يطلق اسم القرآن على كل من الكتب المتقدمة لأنه مشتق من الجمع. وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد: «خفف على داود القرآن فكان يأمر بدابته أن تسرح فكان يقرأ القرآن من قبل أن تسرح دابته، وكان لا يأكل إلا من عمل يديه»، انفراد به البخاري. والمراد بالقرآن هو الزبور. ﴿أَفَلَمْ يَأْتِسَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي من إيمان جميع الخلق ويعلموا، أو يتبينوا ﴿أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ فإنه ليس ثم حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجع في العقول والنفوس من هذا القرآن الذي لو أنزله الله على جبل لرأته خاشعاً متصدعاً من خشية الله، وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبي إلا أوتي ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»، معناه أن معجزة كل نبي انقضت بموته، وهذا القرآن حجة باقية على الآباد، لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا يشعب منه العلماء، هو الفصل، ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله. ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ أي بسبب تكذيبهم لا تزال القوارع تصيبهم في الدنيا، أو تصيب من حولهم ليتعظوا ويعتبروا ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ يعني فتح مكة، أو يوم القيامة. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ أي لا ينقصه وعده لرسله بالنصرة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتَ رَسُولَ مِن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ (٣٢).

يقول تعالى مسلياً لرسوله ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتَ رَسُولَ مِن قَبْلِكَ﴾ أي فلك فيهم أسوة ﴿فَأَمَلَيْتَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي أنظرتهم وأجلتهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ﴾ أخذه رابية، فكيف بلغك ما صنعت بهم وعاقبتهم وأملت لهم؟ وفي الصحيحين: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُمْ آيسٌ شَدِيدٌ﴾ (١٠٢). [مورد: 102].

﴿أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَبْظَاهِرُ مِن الْقَوْلِ بَلِّ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾ (٣٣).

﴿أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي حفيظ عليهم رقيب على كل نفس منفوسة، يعلم ما يعمل العاملون من خير وشر، ولا يخفى عليه خافية ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ أي عبدوها معه من أصنام وأنداد وأوثان ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أي أعلمونا بهم، واكشفوا عنهم حتى يعرفوا فإنهم لا حقيقة لهم، ولهذا قال:

﴿أَمْ تَتَّوِنُونَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي لا وجود لها، لأنه لو كان لها وجود في الأرض لعلمها لأنه لا تخفى عليه خافية ﴿أَمْ يَظَاهِرُونَ الْقَوْلَ﴾ بظن من القول، أو يباطل من القول، أي إنما عبدتم هذه الأصنام بظن منكم أنها تنفع وتضر، وسميتموها آلهة ﴿بَلْ زَيْنَ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ أي ما هم عليه من الضلال والدعوة إليه آناء الليل وأطراف النهار ﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ بما زين لهم من صحة ما هم عليه صدوا به عن سبيل الله ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَآلَهُ مِنْ هَادٍ﴾ .

﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾ .

ذكر تعالى عقاب الكفار، وثواب الأبرار، فقال بعد إخباره عن حال المشركين، وما هم عليه من الكفر والشرك: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي بأيدي المؤمنين قتلاً وأسراً ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ﴾ أي المدخر مع هذا الخزي في الدنيا ﴿أَشَقُّ﴾ أي من هذا بكثير كما قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين «إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة» .

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكْلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾﴾ .

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ أي صفتها ونبعتها ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي سارحة في أرجائها وجوانبها، وحيث شاء أهلها يفجرونها تفجيراً، أي يصرفونها كيف شاؤوا، وأين شاؤوا ﴿أُكْلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ أي فيها الفواكه والمطاعم والمشارب، لا انقطاع ولا فناء. وفي الصحيحين من حديث ابن عباس في صلاة الكسوف، وفيه قالوا: يا رسول الله، رأيناك تناولت شيئاً في مقامك هذا، ثم رأيناك تكعكت، فقال: «إني رأيت الجنة - أو أريت الجنة - فتناولت منها عتقوداً ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا». وروى مسلم عن رسول الله ﷺ: «يأكل أهل الجنة ويشربون، ولا يمتخطون ولا يتغوطون ولا يبولون، طعامهم حبشاء كريح المسك، ويلهمون التسييح والتقديس كما يلهمون النفس» .

﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابٌ ﴿٣٦﴾﴾ .

﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ﴾ وهم قائلون بمقتضاه ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي من القرآن، لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾ أي ومن الطوائف من يكذب ببعض ما أنزل إليك. قال مجاهد ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ﴾ أي اليهود والنصارى وقوله: ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا﴾ أي إلى سبيله أَدْعُوا الناس ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابٌ﴾ أي مرجعي ومصيري .

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاكِ وَلَا وَاكِ ﴿٢٧﴾﴾ .

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ أي وكما أرسلنا قبلك المرسلين، وأنزلنا عليهم الكتب من السماء كذلك أنزلنا عليك القرآن محكماً معرباً، شرفناك به، وفضلناك على من سواك بهذا الكتاب المبين الواضح الجلي الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: 42] وقوله: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي آراءهم ﴿بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي من الله سبحانه ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاكِ وَلَا وَاكِ﴾ وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا سبيل أهل الضلالة بعدما صاروا إليه من سلوك السنة النبوية والمحجة المحمدية على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِطَايِفَةٍ إِلَّا يَأْذِنَ اللَّهُ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٢٨﴾﴾ .

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد رسولاً بشرياً كذلك قد بعثنا المرسلين قبلك بشراً يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، ويأتون الزوجات، ويولد لهم، وجعلنا لهم أزواجاً وذرية، وقد قال الله لأشرف الرسل وخاتمهم: ﴿قَدْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: 110] وفي الصحيحين: «أما أنا فصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأكل اللحم، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني». وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِطَايِفَةٍ إِلَّا يَأْذِنَ اللَّهُ﴾ أي لم يكن يأتي قومه بخارق إلا إذا أذن له فيه، ليس ذلك إليه، بل إلى الله عز وجل، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أي لكل مدة مضروبة كتاب مكتوب بها، وكل شيء عنده بمقدار ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج: 70].

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ مَا يَشَاءُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٢٩﴾﴾ .

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ منها ﴿وَيُثَبِّتُ﴾ يعني حتى نسخت كلها بالقرآن الذي أنزله الله على رسوله صلوات الله وسلامه عليه. واختلف في معنى ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ يدبر أمر السنة فيمحو الله ما يشاء إلا الشقاء والسعادة والحياة والموت، وروي عن أبي عثمان النهدي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال، وهو يطوف بالبيت ويكي: اللهم إن كنت كتبت علي شقوة أو ذنباً فامحه، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب، فاجعله سعادة ومغفرة. وروي أن كعباً قال لعمر: لولا آية في كتاب الله لأنباتك بما هو كائن إلى يوم القيامة، قال: وما هي؟ قال: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ ومعنى هذه الأقوال أن الأقدار ينسخ الله ما يشاء منها، ويثبت منها ما يشاء، وقد يستأنس لهذا بما رواه الإمام أحمد عن النبي ﷺ: «إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، ولا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر» ورواه النسائي وابن ماجه. وثبت في الصحيح: «أن صلة الرحم

تزيد في العمر». وفي حديث آخر: «إن الدعاء والقضاء ليعتلجان بين السماء والأرض»، وروي عن سعيد بن جبير أنها - يمحو الله ما يشاء ويثبت - بمعنى ﴿يَعْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ [آل عمران: 129] وقوله ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ الحلال والحرام، أو جملة الكتاب وأصله، أو كتاب عند رب العالمين، أو علم الله ما هو خالق، وما خلقه عاملون، أو الذكر، أقوال.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّفَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ .  
 ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ﴾ يا محمد بعض الذي نعد أعداءك من الخزي والنكال في الدنيا ﴿أَوْ نَتَوَقَّفَنَّكَ﴾ أي قبل ذلك ﴿فَأِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ﴾ أي إنما أرسلناك لتبلغهم رسالة الله، وقد فعلت بما أمرت به ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ أي حسابهم وجزاؤهم.

﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعٌ الْحِسَابِ﴾ (٤١).

﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أولم يروا أنا نفتح للأرض بعد الأرض، أو نقصها من أطرافها يعني خرابها، أو هو ظهور المسلمين على المشركين، أو نقصان الأنفس والثمرات وخراب الأرض، أو خرابها بموت علمائها وفقهائها وأهل الخير منها، والقول الأول أولى، وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية.

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعَعِلُّ الْكَفْرُ لِمَنْ عَقِبَى الدَّارِ﴾ (٤٢).

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ برسلهم، وأرادوا إخراجهم من بلادهم فمكر الله بهم وجعل العاقبة للمتقين كقوله: ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥٠) فأنظر كيف كانت عاقبة مكرهم أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) [النمل: 50، 51] وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي أنه تعالى عالم بجميع السرائر والضمائر، وسيجزي كل عامل بعمله ﴿وَسِعَعِلُّ الْكَفْرُ لِمَنْ عَقِبَى الدَّارِ﴾ أي لمن تكون الدائرة والعاقبة لهم أو لأتباع الرسل، كلا، بل هي لأتباع الرسل في الدنيا والآخرة. والله الحمد والمنة.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ (٤٣).

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ أي ما أرسلك الله ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي حسبي الله هو الشاهد عليّ وعليكم، شاهد فيما بلغت عنه من الرسالة، وشاهد عليكم أيها المكذبون فيما تفترون من البهتان. وقوله: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ هم من اليهود والنصارى الذين يجدون صفة محمد ﷺ ونعته في كتبهم المتقدمة من بشارات الأنبياء به عليهم الصلاة والسلام.